

محكي الشتات الفلسطيني من التخييل النصي إلى التأويل الثقافي

قراءة في نص "طيور الحذر" لإبراهيم نصر الله

The Narrative of the Palestinian Diaspora: From Textual Fictionalization to Cultural Interpretation: A Reading of Ibrahim Nasrallah's Birds of Caution

أمال شيدخ

جامعة عبد الحفيظ بوصوف ميله، مخبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب (الجزائر)، الإيميل

chidekh.a@centre-univ-mila.dz: المهي:

النشر: 2026/06/30

القبول: 2026/06/25

الاستلام: 2025/10/19

ملخص:

يستند هذا البحث في قراءة النص الروائي طيور الحذر إلى رؤية تأويلية ثقافية، تنفتح على أفق تلقى يتجاوز انغلاق البنية النصية، إلى سياقات خارجية تتأسس على ما يقترحه النص من عوالم ممكنة تتجه بالقارئ من السؤال النصي إلى السؤال الثقافي؛ فلا يقف عند المقاربة الجمالية والفنية، بل يغوص وينخرط في تساؤلات ثقافية تلامس الواقع المأساوي المفجوع والموجوع للشعب الفلسطيني في شتاته ومنفاه. فتكشف القراءة عن الدور الذي يضطلع به السرد المضاد في مواجهة الخطابات السائدة التي تروم تهميش الهوية الفلسطينية، وتغيب الفاعلية التاريخية للذات المنفية، ليتأتى فعل التصدي على شكل بعث وإحياء للمقاومة الثقافية ضد اغتصاب الإنسانية في فلسطين.

الكلمات المفتاحية: الشتات الفلسطيني؛ المقاومة الثقافية؛ السرد المضاد؛ المأساة الفلسطينية.

Abstract:

This research provides a thorough analysis of the novel Birds of Caution based on a cultural interpretative vision that embraces a receptive horizon, transcending the closure of textual structure toward external contexts. These contexts are grounded in the possible worlds proposed by the text, leading the from the textual question towards the cultural question. Therefore, the reader does not stop at the aesthetic and artistic approach. Instead, he engages with and delves into cultural questions that embrace the tragic, afflicted and painful reality of Palestinians and their diaspora and exile. The reading reveals the central role played by the Counter-Narrative in confronting the dominant discourses that seek to marginalize Palestinian identity and erase the historical agency of the exiled self. This act of confrontation ultimately emerges as a resurrection and revival of cultural resistance against the usurpation humanity in Palestine.

Keywords: Palestinian Diaspora, Cultural Resistance, Counter-Narrative, Palestinian Tragedy.

1. فاتحة التأويل:

يستند هذا البحث إلى رؤية تأويلية ثقافية، قوامها: أن النص الإبداعي لم يعد أحادياً لا يحيل إلا على ذاته المغلقة، مثلما نجد لدى المفهوم البنيوي وإنما أضحى مع الدراسات ما بعد البنيوية (التفكيكية، الدراسات الثقافية...) نصاً متعددًا بتعدد إمكاناته، و مفتوحاً على الآخر/القارئ؛ فالنص هو تلك البنية النصية اللغوية الساكنة والراكدة الجامدة التي تنتظر قارئها لتسكن إليه قراءة وتأويلًا، وحدها القراءة من تنقله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، "فكل أثر فني حتى وإن كان مكتملًا ومنغلقًا من خلال اكتمال بنيته المضبوطة بدقة، هو أثر "مفتوح" على الأقل من خلال كونه يؤوّل بطرق مختلفة، دون أن تتأثر خصوصيته التي لا يمكن أن تختزل" (إيكو، 2001، ص 16)؛ لأن البنية النصية تحيل القارئ النموذجي على عالم خارجي انطلاقًا من المعطى الداخلي للبنية السردية الذي يفتح على الخارج بفعل استراتيجيات نصية يقترحها النص ويستوعبها القارئ، فيتعدد النص بها نصوصًا، وتتعدد به القراءة فهمًا، وهذا الانفتاح على العالم الخارجي هو ما يجعل من النص الإبداعي منجزًا ثقافيًا بالامتياز.

من أجل استثمار هذا الفهم النقدي للنص المنفتح على القراءات المتعددة يفرض على القارئ مشاركة النص ومصاحبته في اختلافه وتمايزه، والإنصات إلى وقع المعنى القابع في عمقه؛ ذلك أن النص الإبداعي من طبيعته أن يحيل ولا يفصح، ويلمح ولا يصرح، ف"هو من يملك قرار نفسه، يبدي ما يشاء ويخفي ما يشاء، فتتعدد، إذ ذاك، القراءات والتأويلات، وتتداخل النصوص مشكلة نصًا جامعا يلم شتاتها هو نص التأويل،

الذي يعدّ بمثابة تأسيس لنمط جديد من الكتابة، إنها الكتابة المتشظية المناهضة للكلية والشمولية، الداعية إلى إنتاج التعدد، وإبداع كائن جديد" (بارة، 2008، ص 42) يسعى إلى القبض على الفهم في سياقات غير معلنة أساسها المواجهة النصية، ومشاركة النص في بناء الدلالة بالاستئناس إلى وقع معناه.

تبدأ هذه المشاركة النصية من فهم السؤال النصي: الذي تخلّق بوساطة اللغة والتخييل عندما دخل النص في علاقة تصادية مع الواقع، كانت نتيجتها إما التأكيد أو الرفض، ومآلها الاحتواء والتأويل، وهي علاقة تنتهي بإعادة تشكّل الإطار المرجعي/أو التراكمات الثقافية التي تحيل عليها البنية السردية؛ فالنص الإبداعي "يأتي كإجابة عن سؤال وجودي أو معرفي معيّن يمثل سياق إنتاجه" (الحميمة، 2014، ص 82، 83)، و يطلب حثيثًا مشاركة القارئ في استرجاعه على نحو يرمم تلك الفجوات أو مناطق الغياب فيه، لإنتاج دلالات احتمالية يقبلها النص إلى حين؛ وهذا على أساس أن "ما يجعل النص مفتوحًا على كل ما هو غير متوقع من الأفاق هو ذاك السؤال الذي تطرحه الذات على جماليات السرد والكتابة عبر عوالم ممكنة ومتجدّدة في كل مرة من سياق إنتاجه ليندرج ضمن سياقات أخرى" (بن حسن، 1992، ص 47) هي سياقات التلقي التي تتعدد بتعدد الإمكانات الدلالية للنص وتنتفتح على القراءة والتأويل.

من هذا المنطلق تمثل القراءة التأويلية الثقافية إمكانًا مناسبة لفهم النص، على اعتبار أنها قراءة تعرّف ذاتها من خلال فعل التأويل بوصفه آلية تنطلق من النص لتعود إليه، بغية إنتاج فهم يتجاوز المعنى الظاهر نحو كشف تمثيلات العالم

إنسانية وثقافية داخل السرد، يعيد المتخيل النصي صياغتها وفق منطق السرد وآلياته الجمالية.

ومن هذا المنطلق تتحدد إشكالية البحث في الكشف عن تمثيلات الشتات الفلسطيني ومساءلة الكيفية التي شيد بها نص طيور الحذر هذا الخطاب، من خلال رصد الآليات السردية والثقافية التي وظفها المتخيل الإبداعي لبناء صورة المنفى والته، واستجلاء ما تحمله هذه التجربة من دلالات يعاد فيها تشكيل علاقة الأرض بالهوية.

ومن هذه الإشكالية المحورية تنبثق جملة من التساؤلات، التي توجه القراءة التأويلية الثقافية للنص الروائي، من أبرزها:

كيف تروي لنا رواية "طيور الحذر" الشتات الفلسطيني؟ وكيف يعيش الفلسطيني منفاه؟ وهل استطاع المتخيل أن يقدم لنا صورة عن التيه الفلسطيني؟

ما هو الدور الذي يؤديه السرد إذا كان هو الحياة ذاتها؟ وهل كان الشتات وطنًا بديلاً عن فلسطين؟

2. سياسة الكتابة من محكي الذات إلى سرد الشتات

تتدفق حيوية كتابة نص "طيور الحذر" من الإطار المرجعي/السيرة الذاتية للمبدع، تخلق منه/منها النص و استوى إبداعا استثنائيا متفردا، يروي حكاية الشتات الفلسطيني انطلاقا من كتابة محكي الذات عبر السرد الاستعادي، الذي ينطلق في استرجاع تراكمات الماضي كتابة "تسعى إلى بناء هوية نصية موازية (..) لتجربة الحياة الفردية في الوجود ولا تنتج من خلال لغة الكتابة إلا ما يضيء عليها أشد معاني الاعتبار رفعة" (شاوي، 2000، ص 6)؛ ذلك أن العودة إلى الماضي وإعادة

داخله. ويعد هذا الفهم الغاية التي تحرك فعل التأويل سعيا لإيجاد مداخل قرآنية مشروعة تمكنه من التواصل مع النص في اختلافه، فالنص "لا بداية له، إنه عكوس؛ قابل للانقلاب، يمكن الولوج إليه من شتى المداخل دون الإدعاء على وجه اليقين، أن هذا المدخل أو ذاك هو الرئيس" (البكري، 2006، ص 125)، إنه في حالة من الانفتاح الذي يجعله مناهضا لكل معرفة مسبقة عن القراءة، التي تتيح للقارئ فرصة التكفل ببناء المعنى من خلال العيش في كنف النص، وأثناء المواجهة النصية وبفعل توجهات النص يتحقق المعنى فهما وتأويلا؛ ذلك أن "حقيقة المعنى التي يتعقبا الفهم ليست بالشيء المتجلي الذي ينتظر الآخر/المؤول أن يقبض عليه أو يزيده إيضاحا وتجليا، وإنما هي، (...) توجد بين بداية مجهولة ولحظة متحولة في زمن غير قابلة للتحديد ومن ثم يصعب ضبط هذه الحقيقة فهما وتأويلا.." (بارة، 2008، ص 267) إلا عن كونه دلالة يجب مصاحبها في حدود ما يتيحها فهم النص من استراتيجيات.

تحقيقا لهذه العلاقة التواصلية يتوجه القارئ إلى البنية السردية بحثا وتنقيبا عن تشكيلات خطاب الشتات الفلسطيني في رواية "طيور الحذر"؛ لأن الغاية التي تجري إليها المقاربة التأويلية الثقافية، هي: فهم خطاب الشتات بوصفه فعلا سرديا في المتخيل، استنادا إلى البنية السردية للنص، والتواصل بالمتخيل ضمن إطاره المرجعي الثقافي باعتبار الشتات الفلسطيني استراتيجية خاصة للتمثيل السردية، تتجسد من خلالها أسئلة الاقتلاع والمنفى والهوية والذاكرة...؛ فلا يقتصر الخطاب الروائي على عرض تجربة الشتات في بعدها الواقعي، بل يتعاطى معها بوصفها تجربة

الذات كتابة وهي تعمل على إعادة صياغة مفاهيم فرضت عليها من قبل المستعمر، وإعادة النظر في الحدود الضيقة التي تم وضعها فيها حتى لا تتمكن من استرداد حقها في الرجوع والعودة إلى الوطن، من أجل ذلك تلتفض الذات المجروحة ضد هذا الواقع وتشكل سردا مضادا للقوى الكولونيالية، بوصفه خطابا يعيد كتابة التاريخ من منظور الذات الفلسطينية، يهدف إلى تفكيك التمثيلات التي رسخها الخطاب الكولونيالي حول الفلسطيني، باعتباره موضوعا للسرد لا فاعلا فيه، "وهي العملية التي تؤكد أن الذات في الحكاية أصبحت في موقع الراوي وليس المروي عنه، تملك القدرة على تمثيل توارخها وتنقش صورها بعد أن صايرتها القوى الكولونيالية". (بوعزة، 2014، ص 50)، التي كانت تعمل على محو صورة فلسطين من ذاكرة اللاجئين وتشيتهم بالإقلاق وطمس حريتهم، يقول الراوي: "اختفى الأستاذ خالد. كما اختفى أبوه. (...) هل يكون الحائط بلغ عنه، هو الذي وقف وسط الصف ورمى العصا بعيدا؟ هو الذي قال: افهموا جيدا.. للإنسان بيت واحد، ووطن واحد هو وطنه، ورسم خريطة فلسطين كما لم يرسمها معلم من قبل على السبورة، وحين لم تتسع السبورة واصل الرسم على الحائط وبالطباشير الحمراء. وقال: انظروا كم هي طويلة وجميلة". (ابراهيم، 2012، ص 233).

فالسرد في نص "طيور الحذر" يأتي ضمن مستوى من المقاومة الثقافية أو الردّ بالكتابة مثلما اصطلح عليه بيل اشكروفت/Bill Ashcroft، إذ انبثق من إطار مرجعي وهو كتابة السيرة الذاتية، من هذا المنطلق يلج البحث في طرح السؤال التالي: إذا كان الإطار المرجعي الذي انبعثت منه كتابة سردية تسعى إلى تشكيل هوية نصية موازنة

كتابة الذات/المبدع سردا، هو ذاته فعل اعتناق من ربق استبداد الاستعمار الذي عمل، ويعمل على محو الذات والغائها وإبعادها عن أرض الوطن، فالراوي/المبدع حرّ مشاهد في الفضاء السردى يروي من خلالها حياته في مخيم "الوحدات" بعد نكبة عام 1948 تاريخ بداية الشتات الفلسطيني، وكيف عاش بعيدا عن وطنه "فلسطين" حتى أضى الشتات هو فضاء البديل المهمش، يقول: "كان الصغير يسأل ويلج: أين رأيت أمّ خليل؟ في السوق يعني في "الوحدات"؟ آه أين يسكنون؟ في المخيم. أين المخيم؟ في طرفه الآخر. كم طرفا للمخيم؟ سأل الصغير نفسه، ولم يستطع الإجابة. نحن طرف المخيم أيضا"(ابراهيم، 2012، ص 92) فهذا الواقع المعيش المتشردم/"الشتات" الذي لا حدود لشقائه يدفع بالذات المجروحة إلى كتابة إبداعية سردية تستنطق فيها تساؤلاتها الوجودية "الهوية، والحرية والانمحاء، النسيان والذاكرة، الوطن والتاريخ.."، حتى تغدو الحياة معها "نصا ينجح بالقدر الذي يكتب وكذا النص حياة بالقدر الذي يؤؤل" (الورفلي و ريكور، 2009، ص 61) ؛ فلما تستوعب اللغة الحياة في بعدها الإشكالي تصبح فعلا تأويليا بامتياز، غايته تأسيس عالم إبداعي يوازي الحياة ذاتها، والحياة لما تغدو في ضيافة اللغة السردية تصبح منجزا نصيا قابلا للقراءة والتأويل، اللذان يعملان على سرد الحياة متخيلا وواقعا، بناء على علاقة تواصلية بين الإنسان والحياة والسرد.

ذاك هو نص "طيور الحذر" الذي استوطنته الذاكرة لإعادة امتلاك مأساة الفلسطيني في الشتات واقعا ومتخيلا، بحثا عن وطن مفقود، ومسلوب تم استرجاعه عبر المتخيل، لتتحقق

فيغدو السرد ذاته أداة لإعادة توزيع الصوت بين الذات الفردية، والهوية الجماعية، ضمن ما يمكن قراءته في إطار تصورات الذاكرة الجماعية، وآليات تشكل الهوية في سياق التجربة الفلسطينية.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن هذه المقطوعة السردية تعد مراوغة سردية تروم تحقيق الديمقراطية بين الذات والجماعة؛ لأن الذات التي انكبت في النص لا تحيل على مبدعها، بالقدر الذي تحيل فيه إلى الشعب الفلسطيني في شتته واقتلاعه ومصابه، وما يدعم هذا التأويل أكثر هو مفهوم مصطلح الشتات ذاته؛ إذ يتفرد بحدود مفاهيمية ترفع عنه كل لبس بينه وبين المنفى وتبين شمولية مفهومه للجماعة والتاريخ والوطن...

يشمل مفهوم الشتات مفهوم النفي ويتجاوزه باقترانه بالجماعة، ليتسع إلى مفهوم شمولي أساسه الاختلاف في تجريبي المنفى والشتات "فتجربة المنفى تتميز بطابعها الذاتي، وفي المقابل ذلك، فإن التعبير الأنسب عن فكرة الاقتلاع والتهجير الجمعي، وما ينشأ من تداعيات مصاحبة تتصل بموضوع الشتات، معرفياً وإنشائياً، وهو يتمظهر بخطابه، كونه الأقدر على توصيف هذا المسلك الجمعي، فالمنفى إحالة للمكان الذي ينتقل إليه الإنسان، في حين أن الشتات ينضوي على قراءات متعددة، منها مركزية التشظي للمكون الجمعي إلى أجزاء defragment" (أبوشهاب، 2017، ص 40)؛ ذلك أن التمييز بين الشتات والمنفى يأتي ضمن تداعيات وجودهما؛ فإذا كان المنفى مفهوماً ينبثق من تجربة الذات في منفاهما بفعل الإكراه الذي مورس عليها في أرض الوطن لتتوجه إلى المنفى تحت الضغط، هذا ما يسمى بالمنفى

للحياة الفردية للمبدع، فكيف ارتقى مستوى نص "طيور الحذر" أن يسمعنا صوت الجماعة/الشعب الفلسطيني، وهو الغارق في محكي الذات؟

يرتبن وجود هذا المستوى من الفهم بوجود واقع مشترك معيش ومصير موحد تلتف حوله الجماعة لتتحول السيرة الذاتية إلى سيرة جماعة، يرتسم معها كل تفاصيل الشتات الفلسطيني الذي انشغل بها نص "طيور الحذر"، ليسمعنا أصوات المششتين الفلسطينيين ومرارة الإزاحة والاقتلاع والتهجير القسري عن أرض الوطن يقول الراوي: "انتشر البشر في بيوت متباعدة، زرعوا أمام المغاور دوالهم، وهم يدركون أن إقامتهم هنا لن تطول، يتجولون وخُضرتهم معهم، يرحلون وخضرتهم معهم. ويشقون. ولم تكن الأشجار التي يحبونها، أشجارهم الفلسطينية، عاجزة عن أن تنمو في هذه السفوح؛ فزرعوها، وهم على يقين أنهم سيتركونها هنا ذكرى لأيام قاسية عاشوها بعيداً عن وطنهم." (ابراهيم، 2012، ص 23).

تكتسب هذه المقطوعة السردية بعداً يتجاوز كونها تمثيلاً حكاثياً للمعاناة، لتتحول إلى بنية خطابية تعيد إنتاج العلاقة بين الفرد والجماعة داخل النص؛ فلا تقف عند حدود وصف شقاء المبعدين، بل تؤسس لخطاب يربط الفرد بالجماعة من خلال رمزية الأرض، يظهر ذلك في حركة البشر الذين (يرحلون وخضرتهم معهم)، أين يذوب الأنين الفردي في وعي جمعي مشترك؛ حيث يتشابك اليقين بأن الإقامة لن تطول مع الإصرار على ترك الذكرى، عبر غرس الأشجار، وهو ما يجسد آليات تشكل الهوية الفلسطينية التي ترفض المحو، وتجعل من الذاكرة فعلاً حياً يتحدى قسوة الغياب عن الوطن.

القسري، مثلما قد يكون هناك منفى طوعي أو اختياري (شحات، 2006، ص 22)، فيه تختار الذات الهجرة بفعل ظروف اجتماعية تدفعها إلى ذلك وهي في مستوى من اختيار العودة أو البقاء في المنفى، وهنا قد يلتقي مفهوم المنفى بمفهوم الشتات بجزء منه ولكن لا يمثله؛ لأن "المنفى نموذج أو خبرة ترتبط بالذات، فالمنفى يتحدد بوصفه مكانا تنتقل إليه كرها، ولكن في سياق لا يتصل بوعي جمعي" (أبوشهاب، 2017، ص 38) أما الشتات فهو يرتبط بـ "التجربة الخاصة بمجموعات عرقية معينة، أو أمة ما، أي مجموعا متجانسا، يحمل ذاكرة مشتركة، ويسعى لتأسيس مستقبل مشترك، وتحقيق إنجاز ما، في حين أن المنفى يبدو أقرب إلى تجربة تتمركز حول الأنا." (أبوشهاب، 2017، ص 38)، إضافة إلى ذلك إن ما يحدد مفهوم الشتات الفلسطيني أكثر، ويجعل منه مفهوما معقدا ومتشابكا أنه من أشد التجارب تعقيدا كونه معطى وجودي (أبوشهاب، 2017، ص 40)، لأن الشتات الفلسطيني مرتبط بالهوية المهددة بالانقراض من طرف الآخر الذي يعمل على طمسها ومحوها.

منتشرين في أمكنة لم ترحب بانتمائهم، وجغرافيات عمّقت شعورهم بالاقتلاع والتهميش؛ لأن "الفلسطيني لا حق له في وطنه الأم كونه ينتهي إلى الشتات، ولا حق له في أوطان الشتات، كونه ينتهي إلى فلسطين." (أبوشهاب، 2017، ص 13)، ويرتفع هذا السياق بالأزمة من مستواها الجغرافي المباشر إلى مأزق وجودي حاد، يغدو فيه الشتات حالة هوياتية مغلقة؛ فاللاجئ هنا يعيش تمزقا حقيقيا بين ماض انتزع منه، وحاضر طارئ يفرض الاعتراف به، هذا الشرخ الوجودي هو ما يعمق الإحساس بالاغتراب، وينتزع الانتماء من سياقه البديهي المستقر، ويحوّله إلى سؤال قلق يعاد طرحه مع كل جدار، أو شجرة غريبة.

وهذا ما تنلمسه بقوة عندما فقد "علي" و "عائشة" الأمل في أن يكون لهما عيش في هذا المكان "الشتات".

يقول الراوي: "لا هذه الأرض أرضه التي يعرفها، ولا هؤلاء الناس ناسه الذين خرج من صلبهم." (ابراهيم، 2012، ص 90).

هنا تتجلى ذروة الانفصام بين الذاكرة وجغرافيا الشتات؛ فالراوي يعلن بوضوح استحالة أن يمتد المكان الطبيعي ليطماهى مع ذات اللاجئ، فالغرباء الذين يحيطون بهما، والأرض التي لا تشبه ملامحها ما يعرفانه، يحلان المكان من ملجأ طارئ إلى مساحة باردة تكرر الاغتراب بدل أن تخففه.

إنّ الفلسطيني الذي أرغم على مغادرة وطنه، واقتلع من أرضه تشتت معيشه فكان مصيره إما الموت أو المنفى القسري "أمة قالت: إن أبا خليل غرق في دمه. وأبوه قال: إن كثيرا من الذين خرجوا من فلسطين عن طريق البحر غرقوا" (ابراهيم، 2012، ص 98).

إذا كان الشتات بهذا المعنى، فكيف يحضر في نص "طيور الحذر"، وكيف نفهم وجوده السردى؟

3. التمثيلات السردية للشتات الفلسطيني

يتخذ خطاب الشتات الفلسطيني في نص "طيور الحذر" مسارات متباينة، ومنسجمة في الفضاء السردى، تطرح نفسها بوصفها تمثيلا سرديا في التخييل عن واقع معيش مأساوي تحياه مجموعة بشرية تم تهجيرها وإبعادها عن وطنها؛ حيث أجبر ملايين الفلسطينيين الأبرياء على مغادرة وطنهم قسرا إبان نكبة 1948، أعقبتها موجة أكثر قسوة بعد نكسة 1967، حيث وجد المهجرون أنفسهم

يحاولون قطع الزمن بالكلام." (ابراهيم، 2012، ص 83).

فالمقتلع يعيش حالة انتظار دائم للمجهول لا يعرف فيها سوى الارتحال من مكان إلى آخر، وقد غدا الترحال منهجا مستمرا له في الزمن والتاريخ؛ لأن الشتات كينونة متجذرة في وجوده وزمنه.

يقول الراوي: "كان التعب قد هدهم تماما، بعد مسير طويلة على الأقدام، من قريتهم إلى غزة، إلى الخليل، إلى حيث هم الآن. لم تكن الهجرة أقل وطأة من رحى عملاقة." (ابراهيم، 2012، ص 23)؛ فالوطن قد تمزق، وتشردم من طرف الآخر المستعمر بطريقة منهجية، حتى لا يعاد ترميمه وانتشاله من النسيان؛ لأن "فلسطين يوما بعد يوم تتأكل على مستوى الأرض التي تحولت إلى قطاعات منفصلة، إذ تشردم شعبها، وتشتت في غير مكان، ما يعني أن ثمة "نشتيتا" لفلسطين، وكل ما تعلق بها" (أبوشهاب، 2017، ص 13)، هذا ما أفرز واقعا عنيفا يتلاعب بالهوية الفلسطينية، وينكب على وضعها في حالة من الإكراهات و التمزق ليصبح وجود الفلسطيني مرهونا بمدى صموده أمام حاضر ليس له.

يقول الراوي: "لم تمهل الحرب أحدا كي ينجب، كي يواصل أحلامه التي بدأها، انفجرت في كل الجهات. وانكسرت آمالهم بجيش الإنقاذ الذي لم يستطع إنقاذ نفسه." (ابراهيم، 2012، ص 88).

يتسع عالم الشتات الفلسطيني المعذب في نص "طيور الحذر" انطلاقا من مشهد درامي حيوي يتموقع في بنية النص، ويروي تفاصيل معاناة الشعب الفلسطيني في الشتات، التي تتمثل لواقع معيش يقوله النص بكثير من الألم والوجع

يتجاوز السرد هنا فكرة الاقتلاع المكاني، ليفكك المأساة ويعيد بناءها عبر تمثيلات حسية وجسدية ملموسة؛ فيتحوّل البحر في وعي العائلة اللاجئة من مجرد جغرافيا فاصلة بين ضفتين، أو أرضين إلى مقبرة مائية وكمين يبتلع الحيوانات. إن حديث الأب والأُم عن الدماء المهدورة وأعماق البحر، يوضح كيف ارتبط الشتات الفلسطيني منذ تشكله الأول بتهديد مباشر للحياة، مما جعل فعل العبور بحد ذاته تجربة قاسية يترصص بها الفناء.

ليظل المشتت مهددا بموت استثنائي موت لا يبقى على ملامح تحدد هوية، غير هوية المنفى والقهر والشقاء...، يقول الراوي واصفا جثة أبو خليل:

"لا شيء من الأشياء يشبه الميت، الذي احتار الرجال حين فكرو بتغسيله. وأية قبلة تلك التي يمكن أن تطبع على فتات اللحم دون أن تقرب الموت أكثر؟" (ابراهيم، 2012، ص 39)، فالموت هو مفصل أساسي في خطاب الشتات الفلسطيني لأنه تساق معه، وتعدد بتعدد أزمنته الغارقة في التاريخ الفلسطيني.

يبقى البحث عن تمظهرات الشتات الفلسطيني متخذًا مسارا قرائيا مختلفا، يكشف به عن ذوات نصية تتقاطع مع واقع معاش مرير، يتمظهر فيه الشتات الفلسطيني سرديا كوطن للقلق والاضطرار وقضاء للطارئ؛ إذ تحيا شخصيات نص "طيور الحذر" حياة يسودها اللااستقرار، ويخيم عليها شبح الموت، وضبابية المستقبل.

يقول الراوي: "لم يكن لعائشة دار. حين هبطوا التلال قاطعين البراري الحجرية ووديانها، وعلى أكتافهم عبء أيام قادمة مألحة، ودقائق معجونة برمل خشن تنفتت بصعوبة تحت أسنانهم، وهم

بوضع حلم العودة أساسا في القضاء على زمنية الشتات. يقول الراوي:

"ومال علي على عائشة وقال: مادمنّا نموت هنا، فعلينا أن نجلب أطفالا لعلهم يعودون.." (ابراهيم، 2012، ص 62).

رغبة في الحفاظ على هذا الحلم، حلم العودة وإحيائه في قلوب الفلسطينيين؛ يتحول فعل الإنجاب في هذا السياق من وظيفته البيولوجية إلى ممارسة لمقاومة المنفى والشتات، فيصبح النسل وسيلة لضمان استمرارية الوجود الفلسطيني والحفاظ على الذاكرة الجماعية من خطر الاقتلاع؛ فمع تزايد احتمالات غياب الجيل الأول قبل العودة، يصبح الإنجاب خطة دفاعية لنقل الذاكرة الوطنية، وحماية الهوية من التلاشي الثقافي داخل المخيمات؛ وبذلك يتحول الأطفال إلى حراس لحلم العودة، ويصبح التناسل مشروعا سياسيا يرسخ ديمومة القضية الفلسطينية عبر الأجيال.

يضع النص مشهدا سرديا يحكي عن الانسلاخ من هذا الشتات تدريجيا، وذلك بتفعيل وإثارة حلم العودة. يقول الراوي:

"كل النساء يرتدين الملابس السوداء، صبغن ملابسهن حدادا بعد الخروج من البلاد، ولأن قليلا من هن قادرات على شراء ثياب جديدة، فإن الأسود بقي على سواده، وسيمر وقتا طويلا قبل أن تبدأ الألوان بالفتح ثانية، يخجل في البداية، ثم باندفاعه مزهرة في النهاية، ستكون الأحوال قد تغيرت والأمل قد عاد" (ابراهيم، 2012، ص 70).

يصور المقطع السردى التحول من السواد إلى الألوان، بوصفه دلالة على الانتقال من الحزن والحداد إلى استعادة الأمل بالحياة، وهو ما لا

وهو يصف حال عائشة وهي تبحث عن زوجها علي في العمل عندما عجزت عن الوصول إليه بقوله:

"هنا تتغير المعايير، تنقلب، كان بإمكانها، في فلسطين، أن تأتيه في أي حقل برغيف خبز وحبّة بندورة وقليل من الملح؛ ما كان بالأمس عاديا، يصبح عارا هنا" (ابراهيم، 2012، ص 77).

تتحول تفاصيل الحياة اليومية في هذا المقطع من ممارسات عادية إلى مؤشرات على عمق الاقتلاع؛ فرغيف الخبز وحبّة البندورة اللذان كانا في حقول فلسطين رمزا للألفة والاكتفاء، يكتسبان في فضاء اللجوء دلالة مغايرة ترتبط بالمهانة، فيعكس هذا التحول الفجائي غياب الأمان الاجتماعي والعائلي ل"عائشة"، ويكشف عن شرح حاد بين ماض كان العيش فيه بديها، وحاضر أصبح العيش فيه مواجهة يومية مع الحرمان واللايقين.

إنّه عالم الشتات الذي يفرض على المقتلع حالة من الانكسار والهوان؛ إذ تندرج مشاهد تحكي عن موقف علي من شتاته وهو يبوّح لزوجته عن يتمه ويتم الشعب الفلسطيني بقوله:

"اليتيم يا عائشة، نحن يتامى، لأننا لا نملك شيئا" (ابراهيم، 2012، ص 64)، ليسمعنا صوت المقهورين والمعتذبين الذين يحيون حياة الاقتلاع والإبعاد، صوتا ينبعث منه ألم فقد الوطن والإحساس بالقهر، يقول علي عن الثعالب التي استولى على مغارتها:

"لم يتوقف عواظها طوال الليل. قال والظلمة كحل: معها حق، بيتها وأخذناه. وقال: لماذا لم نعو حتى الآن؟" (ابراهيم، 2012، ص 45).

لتنجلي ضمن النص روح المقاومة في كسر وقهر هذا الشتات الذي يفرض على الفلسطيني، وذلك

بقوة داخل وعي الشخصيات، فيتجاوز الشتات هنا دلالة الفقد والحرمان الخاضع، ويتلبس بحلم العودة، ترسيخ الانتماء. هذا الحضور الطافي للذاكرة داخل المتخيل النصي يضمن استمرارية القضية، ويصنع وعيا صلبا يتصدى لمحاولات النسيان والتهميش.

5. قائمة المراجع:

1- ابراهيم، نصر الله، (2012)، طيور الحذر، الدار العربية للعلوم - ناشرون، لبنان.

2- أبوشهاب، رامي، (2017)، في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني، منظور ما بعد كولونيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن.

3- الحميمة، عبد الله، (2014)، الرواية المغاربية المعاصرة (دراسة تأويلية)، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا.

4- الورفلي، حاتم، وريكور، بول، (2009)، الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان.

5- إيكو، أمبرتو، تر: بوعلي، عبد الرحمان، (2001)، الأثر المفتوح، الحوار للنشر والتوزيع، سوريا.

6- بارة، عبد الغني، (2008)، الهرمينوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان.

7- بن حسن، حسن، (1992)، النظرية التأويلية عند بول ريكور، دار تنيمل للطباعة والنشر، المغرب.

يقدمه السرد كمعجزة جاهزة، بل يجعله مسارا بطيئا ينمو بخجل في عمق المنفى. إن تفتح الألوان على أجساد اللاجنات يعد مقاومة حية تتحدى القمع، وتعيد بناء العلاقة مع المستقبل؛ حيث يتحول حلم العودة إلى فعل تخيلي يخلق للوجود معنى يتجاوز منطق الخسارة الدائمة.

يقودنا هذا المنجز السردى إلى كسر حالة القمع التي فرضت على الفلسطيني وتجاوزها وإحياء مجال الأمل بالعودة إلى الوطن؛ وذلك بفعل استعادة عملية التمثيل السردى لتجربة الشتات الفلسطيني وعبر متخيل روائي يعيش حالة الواقع المأساوي.

4. خاتمة:

ختاما تظل هذه المقاربة التأويلية الثقافية، قراءة احتمالية للنص "طيور الحذر"، مع احتمال وجود قراءات أخرى لا يدعي هذا البحث الإحاطة بها أو الوصول إلى معنى قار للنص. فقد حاول البحث من خلال محطاته قراءة خطاب الشتات الفلسطيني ضمن استراتيجية قرائية اقترحها النص نفسه في إطار العوالم الممكنة، والتي أعادت صياغة واقع مشئت يحياه الفلسطيني المبعد عن وطنه.

وقد تجلّى خطاب الشتات الفلسطيني عبر المتخيل السردى للنص في مظاهر من القهر الإنساني وانمحاء الهوية الفلسطينية، وهو ما مثل همّا وجوديا للشخصية الفلسطينية من خلال مروية الشتات ضد كل أشكال الإلغاء، أو محو لهويته.

وقد أظهر النص قدرة الذات الفلسطينية على خلق أشكال من المقاومة الرمزية تناهض بها واقع التهجير، حيث تظل الجغرافيا المفقودة حاضرة

8- بوعزة، محمد، (2014)، سرديات ثقافية (من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف)، منشورات ضفاف، لبنان.

9- شاوي، عبد القادر، (2000)، الكتابة و الوجود (سيرة الذاتية في المغرب)، افريقيا الشرق، المغرب.

10- شحات، محمد، (2006)، الرواية العربية بعد عام 1967، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن.